معايير المفاضلة
بين الشّعر والنّثر في تراث النّقد العربيّ

د٠ حسن عجب الدّور حسن محمّد (*)

المقدّمة:

من القضايا التي عرض لها النّقاد العرب قضيّة المفاضلة بين الشّعر والنّثر، وهي قضيّة تُعرض –غالبًا– على هامش الدّرس الأدبيّ والنّقديّ، ويأتي الحديث عنها عابرًا، ولو أنّه تكرّر عند دارسين كثُر منذ القرن الأوّل حتى القرن التّاسع الهجريين.

وتبدو قيمة الدّراسة في أنّها سعتْ للكشف عن المعايير التي اعتمد عليها الدّارسون في المفاضلة بين الشّعر والنّثر؛ حيث لم يُفصّلوا حديثًا القول فيها؛ وذلك لاهتمامهم بأنصار الشّعر وأنصار النّثر؛ لذا حرصت الدّراسة على الإجابة عن الأسئلة الآتية:

١– ما المعايير التي اعتمدها النّقاد في المفاضلة بين الشّعر والنّثر في التّراث النّقديّ العربيّ؟

٢– ما قيمة هذه المعايير في حسم قضيّة المفاضلة بين الفنّين: الشّعر والنّثر؟

٣– كيف وظّف النّقاد تلك المعايير في الإقناع بتفضيل أحد الفنّين على الآخر؟

٤– إلى أيّ مدىً كانت قضيّة المفاضلة قضيّة ذات قيمة في النّقد العربيّ؟

(*) أستاذ البلاغة والنّقد المساعد، قسم اللّغة العربيّة وآدابها، بكليّة اللّغة العربيّة والدّراسات الاجتماعيّة في جامعة القصيم.

وقضيّة المفاضلة بين الشّعر والنّثر لم تشغل كثيرًا من الباحثين؛ ولذلك جاءت الدّراسات حولها أبحاثًا قصيرة، ومنها: "**المفاضلة بين الشّعر والنّثر النّقدي في الأندلس**"، د. راغب علاونة، مجلة جامعة أمّ القرى، العدد ٣٧، ١٤٢٩هـ، وهي دراسة بحثتْ في جزء من التّراث النّقديّ، وهو النّقد في الأندلس، ومنها المفاضلة بين المنظوم والمنثور في التراث النّقدي العربيّ، د. حسن محمّد، وهي دراسة ضمن أبحاث محكّمة في إصدار خاص، جامعة الملك سعود، ٢٠١٣م، ومنها دراسة بعنوان: "**قضيّة المفاضلة بين المنظوم والمنثور في النّقد العربيّ القديم**"، د. طارق زيناي، مجلّة مَهْد اللّغات، العدد ٤، ٢٠٢٠م. وهما دراستان أغفلتا جهود نقاد كثيرين عرضوا للقضيّة، إضافة إلى أنّهما –مع سابقتها– جعلتْ محور الدّراسة أنصار الشّعر وأنصار النّثر والمحايدين تجاه القضيّة، فغاب في غمار ذلك الجانب الفنّي المهمّ، وهو المعيار الذي قامت عليه المفاضلة.

ومادّة البحث كائنة في كتب التّراث النّقدي والأدبيّ، سواءً أكانت مصادر اعتنتْ بجمع آراء من عرضوا لقضيّة المفاضلة، ككتاب الإمتاع والمؤانسة لأبي حيّان التوحيديّ، حيث أورد آراء نقادٍ تناولوا القضيّة، أمْ كانت تلك مصادر من تصنيف نقّاد أفردوا شيئًا منها للمفاضلة، ككتاب إحكام صنعة الكلام لأبي القاسم الكلاعيّ، وكتاب الممتع في صنعة الشّعر لعبد الكريم النهشليّ.

اشتمل البحث على خلاصة ومقدّمة، وثمانية محاور، وهي عناوين المعايير التي اعتمد عليها الدّارسون في المفاضلة، وتمثّلت في:

١– المفاضلة الضّمنيّة.

٢– المفاضلة على أساس وظيفة الفنّ.

٣– مكانة الأديب الاجتماعيّة دليل على مكانة الفنّ.

٤– العامل الدينيّ والخُلقي في توجيه المفاضلة.

٥– المعايير الفنّيّة في المفاضلة بين الشّعر والنّثر.

٦– تأثير الفنّ في المتلقّي.

٧– افتراض مقاييس للمفاضلة.

٨– المحايدون ورفض معايير المفاضلة.

وتلَتْ هذه الفقراتِ خاتمةُ البحث التي ضمّت أهمّ النّتائج التي توصّل إليها البحث. ثمّ قائمة بأهم المصادر والمراجع.

اتّبع الباحث المنهج الاستقرائيّ التّحليليّ، وذلك للوقوف على آراء النّقاد على قضيّة المفاضلة من المصادر، ثم تصنيف هذه الآراء وتحليلها وفق المعايير التي اعتمدوا عليها في المفاضلة بين الشّعر والنّثر.

١–المفاضلة الضّمنية:

تمثّل المفاضلة الضّمنيّة بواكير المفاضلة بين النّثر والشّعر، وهي خطوة تهدف إلى تبيان قيمة أحد الفنّين: الشّعر والنّثر، وتشي في الوقت نفسه بالمفاضلة وإنْ لم تصرِّح بها. ولعلّ أظهر مثال لها نجده في مقولة الخليفة عمر بن الخطّاب – رضي الله عنه– :" كانَ الشِّعْرُ عِلْمَ قَوْمٍ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عِلْمٌ أَصَحّ مِنْهُ..."(١)، يفهم من العبارة صحّة الشّعر مقارنة بغيره من فنون القول عند العرب، برغم أنّ المقولة غير مصرّحة بالمفاضلة حين عبّرت بلفظة (أصحّ) للدّلالة بالمفضول، والنّثر أحَد تلك الفنون.

ومن الأقوال المعبّرة عن بواكير المفاضلة ما قاله معاوية بن أبي سفيان – رضي الله عنه– عندما خَيَّره هُدبة بن خَشْرم العُذريّ بين الشّعر والنّثر ، فقال

(١) طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحيّ، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدنيّ، جدة، ١٩٧٤م ج١، ص٢٤.

معاوية :"بل شعراً، فإنّه أمتع".[1] وفي مقولته تفضيل للشّعر على النّثر، وإنْ لم يقلّل مِن شأن النّثر.

وفيما عدا ذلك من إشارات إلى المفاضلة بين الشّعر والنّثر لا يكاد الباحث يعثر على رأي ينبئ عن اهتمام بالقضيّة عند العرب في العصور الأولى. وتبدو النّظرة إلى وظيفتي الشّعر والنّثر ورسالتيهما هي السّائدة. وأنّ القناعة بأنّ لكلٍّ محاسنه ومآخذه هي ما صرفت النّقاد مبكّرًا عن المفاضلة المُفْضية إلى التّعصّب إلى هذا أو ذاك؛ إذ هما لا يعدوان أنْ يكونا إناءين يحتملان أيّ معنى يُصبّ فيهما. بحسب السّياق والمقام.

لكنّ قضيّة المفاضلة ظهرت في القرون التّالية في المشرق، واشتدّ أُوارها في المغرب عند الأندلسيّين. وقد تباينت المواقف بين مدافع عن الشّعر، ومهاجمٍ النّثرَ، وبين موقف يضادّ ذلك، وبين موقف يميل إلى الوساطة بين الموقفين يُثبت فضل هذا أو ذاك، ومواقف رافضة لمبدأ المفاضلة. وممّا يلفت النّظر هو تباين

---

(١) الكامل، أبو العبّاس المبرّد، تحقيق: د. أحمد محمّد الدّالي، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م، ج٣، ص١٤٥٢- ١٤٥٣. وجاءت العبارة في سياق حديث أورده المبرّد عن "الجُفاةِ عند الموت"، وذكر منهم هُدبة بن خَشْرِمٍ العُذْريّ الذي قَتل زيادة بن زيد العُذويّ، فقدّمه عبد الرّحمن بن زيد أخو زيادة إلى معاوية بن أبي سفيان مدّعياً عليه، فقال له معاوية: ما تقول؟ فقال هدبة: أتحبّ أن يكون الجواب شعراً أم نثراً؟ فقال معاوية: بل شعراً... فأنشد:

فَلَمَّا رَأَيْتُ أَنَّمَا هِيَ ضَرْبَةٌ ... مِنَ السَّيْفِ أَوْ إِغْضاءُ عَيْنٍ عَلَى وِتْر
عَمَدْتُ لأَمْرٍ لا تُعَيِّرُ والِدِي ... خِزايَتُهُ ولا يُسَبُّ بِهِ قَبْرِي
رُمِينا فَرامَيْنا فَصَادَ سَهْمُنا ... مَنِيَّةَ نَفْسٍ في كِتابٍ وفي قَدْر
وَأَنْتَ أَمير الْمُؤمِنينَ فَما لَنا ... وَراءَكَ مِنْ مَعْدٍ وَلا عَنْكَ مِنْ قَصْر
فَإِنْ تَكُ في أَمْوالِنا لا نَضِقْ بِها ... ذِراعاً، وَإِنْ صَبْرٌ فَنَصْبِرُ لِلصَّبْر

المعايير التي اعتمد عليها أنصار كلّ فنّ في تفضيل فنّهم، أو المآخذ التي يرونها مؤخّرة للفنّ الآخر.

٢- المفاضلة على أساس وظيفة الفنّ:

شغلت المفاضلة بين الشّعر والنّثر حيزًا كبيرًا على أساس الوظيفة التي يؤديها الفنّ، ينبيك بذلك كثرة من جعلوها مقياسًا مهمًّا للمفاضلة، ومن أوائل هؤلاء النّقّاد أبو هلال العسكريّ(ت ٣٩٥هـ) الذي رأى فضيلة النّثر بيّنة في اختصاصه بأمر الدّين والسّلطان، وتصريف أمور الحياة.(١)، وهو يرى سبقَ النّثر على الشّعر، وصرّح بقصور الشّعر عن هذه الغاية، حيث قال: "ولا يقع الشّعر في شيء من هذه الأشياء موقعًا، ولكنّ له مواضع لا ينجع فيها غيره من الخطب والرسائل وغيرها، وإن كان أكثره قد بنى على الكذب والاستحالة من الصفات الممتنعة، والنعوت الخارجة عن العادات والألفاظ الكاذبة..." (٢)

وقدّم عبد الكريم النّهشليّ (ت ٤٠٣هـ) الشّعر؛ لأنّه حَفِظ موروثَ العرب بحكم ارتباطه بالغناء الذي يسهّل تداوله بينهم، ولا يُملّ ترديده كما هو الحال في النّثر. (٣)

(١) كتاب الصناعتين، أبوهلال العسكريّ، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٩هـ، ص١٣٦.

(٢) المرجع السّابق، ص ١٣٦.

(٣) الممتع في صنعة الشعر، عبد الكريم النهشليّ، تحقيق: د. محمد زغلول سلاّم، منشأة دار المعارف، الإسكندريّة، (د. ت)، ص ١٩.

وممّن جعلوا الوظيفة مزيّة تقدّم فنًّا على آخر ابنُ نباتة (ت ٤٠٥هـ) [١] وقد قدّم الشّعر؛ لأنّ العلماء طالبي الشّواهد يطلبونه؛ للاحتجاج لإثبات قضية أو نَفْيها، أو للقياس عليها، أو غير ذلك، حيث يقول: "من فضل النّظم أنّ الشّواهد لا توجد إلا فيه، والحجج لا تؤخذ إلا منه، أعني أنّ العلماء والحكماء والفقهاء والنّحويّين واللّغويّين يقولون: قال الشّاعر؛ وهذا كثيرٌ في الشّعر، والشّعر قد أتى به، فعلى هذا: الشّاعر هو صاحب الحجّة، والشّعر هو الحجّة"[٢]. ولا أرى فيما أتى به ابن نباتة حجّة؛ إذْ ليست الشّواهد مقصورة على المنظوم، ولكنّه سهلُ الحفظ لمعينات فيه، فتناقله أصحاب الحاجة من زمان إلى زمان. وليس في الأمر تقديم على فنّ النّثر، الذي قُدِّر له أنْ يكون منطوق القوم في كلّ أحوالهم: في جدّهم وهزلهم، وفي حلّهم وترحالهم، وفي فرحهم وحزنهم ... وأمّا الشّعر فهو يأتي بعد تهيئة خاصة، وبواعث دافعة عند قارضه.

ويرى ابن رشيق القيروانيّ (ت ٤٥٦هـ) أنّ من فضائل الشّعر أنّه يحسّن الكذب مع قبحه، ويستشهد لذلك بقول كعب بن زهير:(البسيط)

أُنْبِئْتُ أنَّ رَسُولَ اللهَ أَوْعَدَني وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ مَأْمُولُ

(١) هو عبد العزيز بن عمر بن محمّد بن نباتة التميميّ السّعديّ أبو نصر. من شعراء سيف الدّولة بن حمدان طاف البلاد، ومدح الملوك، واتّصل بابن العميد في الرّي ومدحه. قال عنه أبو حيّان التّوحيديّ: "وأمّا ابن نباتة فشاعر الوقت، لا يدفع ما أقول إلا حاسد أو جاهل أو معاند، قد لحق عصابة سيف الدولة، وعدا معهم ووراءهم، حسن الحذو على مثال سكان البادية، لطيف الالتئام بهم، خفي المغاص في واديهم، ظاهر الإطلال على ناديهم؛ هذا مع شعبة من الجنون وطائفٍ من الوسواس" (الإمتاع والمؤانسة، أبو حيّان التوحيديّ، علي بن محمد بن العبّاس (المتوفّى: نحو ٤٠٠هـ)، المكتبة العصريّة، بيروت، ط١، ١٤٢٤ هـ، ج١، ص٩٩).

(٢) المرجع السّابق، ص٢٥٢.

مَهْلاً هَداكَ الّذي أَعْطاكَ نَافِلَةَ الْـ   قُــرْآنِ فِيـــهِ مَـــواعِيظٌ وتَفْـــصِيلُ
لا تَأْخُــذَني بِــأَقْوالِ الْوُشــاةِ فَلَــمْ   أُذْنِـبْ، وَلَـوْ كَثُـرَتْ فِـيَّ الأَقاوِيـلُ(١)

وفي تقديري أنّ حجّة ابن رشيق في تقديم النّظم هنا لا تقوم على بيّنة مقنعة، فهل صُفِح عن كعب بن زهير؛ لأنّه كذب كذباً حسناً؟ وهل كان العفو بما جاء في بيته الأخير الذي كَذَبَ فيه؟ أَمَا كان صفْحُه – صلّى الله عليه وسلّم- متحقّقاً وإنْ أَلَقى "كعب" معانيه نثراً؟ . ويستشهد ابن رشيق -كذلك- بأبيات حسّان بن ثابت الأنصاريّ في مدح عائشة أمّ المؤمنين -رضي الله عنهما- على فضيلة الشّعر للوظيفة التي يؤدّيها:

فَإِنْ كُنْتُ قَدْ قُلْتُ الذي قَدْ زَعَمْتُمُ   فَــلا رَفَعَــتْ سَــوطِي إِلَــيَّ أَنــامِلِي
فَــإِنَّ الــذي قَـدْ قِيـلَ لَـيْسَ بِلائِـطٍ   وَلَكِنَّــهُ قَــوْلُ امْــرِئٍ بِــيَ ماحِــلِ(٢)

ويعلّق ابن رشيق قائلاً: "فاعتذر كما تراه مغالطاً في شيء نفذ فيه حكم رسول الله -صلّى الله عليه وسلم- بالحدّ، وزعم أنّ ذلك قول امرئ ماحل، أي: مكايد، فلم يُعاقب لما يرون من استخفاف كذب الشاعر، وأنه يحتج به ولا يحتج

---

(١) شرح ديوان كعب بن زهير، صنعة أبي سعيد السكريّ، مكتبة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٦٩هـ، ١٩٥٠م، ص١٩.

(٢) شرح ديوان حسّان بن ثابت، تحقيق: عبد الرحمن البرقوقيّ، دار الأندلس للنّشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٠م، ص ٣٨١. والمحل: المكر والكيد، ومحل به: سعى به إلى السلطان، فهو ماحل. (مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م، مادة(محل)، ص٦٤٢.

عليه."[1]، ولا أحسب هذا الفعل فضيلة للشّعر. إنّها حجّة عليه لا له، كما سنرى عند بعض خصومه من أنصار النّثر.

ومن أبين وظائف الشّعر العربيّ عند ابن رشيق أنّه حفظ موروث العرب، ويستشهد على ذلك بمقولة الخليفة عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– المشهورة، ويقول كذلك: ""ومن فضائله أنّ اليونانيين إنّما كانت أشعارهم تقييد العلوم والأشياء النّفيسة والطّبيعية التي يُخشى ذهابها، فكيف ظنّك بالعرب الذي هو فخرها العظيم وقسطاسها المستقيم؟"[2]

ومن الوظائف التي يؤدّيها الشّعر، ويقصر عنها النّثر –في نظر ابن رشيق– هي أنّه يَحسُنُ فيه مدح النّفس، ولا يجوز ذلك في غيره[3]. ثمّ إنّه ينسب إلى الشّعر فضائل يحشوها حشواً، حتّى إنّه لَيَنسى أنّها نقيصة وليست فضيلة، فهو يقول: "ومن فضل الشّعر أنّ الشّاعر يخاطب الملك باسمه، وينسبه إلى أمه، ويخاطبه بالكاف كما يخاطب أقل السّوقة؛ فلا يُنكر ذلك عليه، بل يراه أوْكد في المدح، وأعظم اشتهارًا للممدوح، كل ذلك يأتي حرصًا على الشّعر، ورغبة فيه، ولبقائه على مرّ الدّهور واختلاف العصور، والكاتب لا يفعل ذلك إلا أنْ يفعله منظوماً غير منثور، وهذه مزيّة ظاهرة وفضل بيِّن"[4].

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه، أبو على الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (المتوفى: ٤٦٣ هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط٥، ١٤٠١هـ – ١٩٨١م، ص٢٥.

(٢) المرجع السّابق، ص ٢٦.

(٣) المرجع السّابق ، ص ٢٢.

(٤) العمدة في محاسن الشّعر، ابن رشيق القيروانيّ، ص٢٢.

وذهب مذهب عبد الكريم النّهشليِّ ابنُ السّراج الشّنترينيّ (ت ٥٥٠هـ) [١] في مقدمة كتابه " المعيار في أوزان الأشعار" إلى أنّ الشّعر ديوان العرب، المثقّف لأخبارها، والمبيّن لمعاني الألفاظ العربيّة، ومستودع آداب العرب ومآثرهم، وفوق ذلك أنّه حجة في تفسير كتاب الله، ومعين في بيان حديث المصطفى صلّى الله عليه وسلّم. [٢] وهو في هذا لم يأتِ بجديد يُذكر في شأن المفاضلة، فما قاله اجترار لمقولة الخليفة عمر بن الخطّاب -رضي الله عنه- "كانَ الشِّعرُ عِلْمَ قَوْمٍ...".

يرتبط الاحتفاء بالشّعر عند أنصاره بالظّرف التّاريخيّ الذي كان فيه للشّعر سطوة، وهو آنذاك قائم مقام الإشهار والإعلام في زماننا الّذي لا نراه ولا نسمعه إلاّ بمنثور الكلام، والأعناق في زماننا تشرئبّ إلى ما يبدع الكتّاب في وسائلهم المتعدِّدة، وما يتفوّهون به من كلام غير منظوم في منابرهم، فهل في هذا إقلال من شأن الشّعر، ورفع لمكانة النّثر؟ إنّه المزاج العام الذي يحكم؛ فيميل به النّاس إلى أحد الفنين.

---

(١) هو محمد بن عبد الملك بن محمد، من أئمة العلماء بالعربية في الأندلس. من أهل شنترين غربي قرطبة، سكن إشبيلية، ورحل إلى مصر واليمن، وجاور بمكّة مدّة، وتُوفي بمصر. من مؤلّفاته: تلقيح الألباب على فضائل الأعراب، والمعيار في وزن الأشعار، وجواهر الآداب وذخائر الشّعراء والكتاب، ومختصر العمدة لابن رشيق، وتقويم البيان لتحرير الأوزان. (الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٥، ٢٠٠٢ م، ج٦، ص ٢٤٩.

(٢) المعيار في أوزان الأشعار، أبوبكر محمد بن عبد الملك بن السّراج الشنترينيّ، تحقيق: د. محمد رضوان الدّاية، مكتبة دار الملاّح للطّباعة والنّشر، ١٤٠٠هـ - ١٩٧٩م، ط٣، ص ٧.

هؤلاء هم أبرز من فضّلوا الشّعر بناءً على معيار الوظيفة. وأمّا الذين قدّموا النّثر استنادًا إلى هذا المعيار فمنهم ابن ثوابة (ت ٣٤٩هـ) [١] حيث أقام المفاضلة على مبدأ الحاجة إلى الفنّ الأدبيّ، وهي نظرة موقوفة –فيما يبدو– على ذوق العصر الذي عاش فيه. فقدّم النّاثر؛ لأنّه الذابّ عن الدّولة. يقول: "لو تصفّحنا ما صار إلى أصحاب النّثر من كتّاب البلاغة، والخطباء الذين ذبّوا عن الدّولة، وتكلّموا في صنوف أحداثها وفنون ما جرى اللّيل والنّهار به؛ مما فتق به الرّتق، ورتق به الفتق، وأصلح به الفاسد، ولمّ به الشّعث، وقرُب به البعيد، وبَعُد به القريب، وحقّق به الحقّ، وأبطل به الباطل، لكان يوفى على كل ما صار إلى جميع من قال الشّعر ولاك القصيد، ولهج بالقريض..." [٢].

وقدّم أبو عليّ المرزوقيّ(ت ٤٢١هـ) النّثر على الشّعر بحسبانه الوعاء الذي ينسج عليه ملوك العرب في الجاهليّة والإسلام خطبَهم حيث يقول: "... ملوكهم قبل الإسلام وبعده كانوا يتبجّحون بالخطابة والافتنان فيها، ويعدّونها أكمل أسباب الرياسة، وأفضل آلات الزّعامة..."[٣].

وقدّم عليّ بن خلف (ت ٤٥٠هـ تقريبًا) الخطابة على الشّعر؛ لتعلّقها بخدمة الدّين والسّلطان [٤]. ووافقه في ذلك ابن الأثير الذي ذهب إلى أنّ الكتابة والكتّاب

---

(١) هو أحمد بن محمد بن ثوابة، من كبار المنشئين في العصر العباسيّ، كاتب ديوان الرّسائل لمعزّ الدّولة أحمد بن بويه. (الأعلام، الزركليّ، ج١، ص٢٠٨).

(٢) الإمتاع والمؤانسة، أبوحيّان التّوحيديّ، ص٢٥٢.

(٣) شرح ديوان الحماسة لأبي تمّام، أبو عليّ المرزوقيّ، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م/١٤٢٤هـ، ص١٥.

(٤) موادّ البيان، أبو الحسن علي بن خلف، تحقيق: د. حاتم صالح الضّامن، دار البشائر، دمشق، ط١، ١٤٢٤هـ– ٢٠٠٣م، ص ٤١.

دعامة من دعامات الدّولة. (١) وهي حجّة مكررة احتجّ بها كثيرٌ من أنصار النّثر. وهي إنْ رفعت من قدر الكُتّاب فإنّها لا تُقْعد بالشّعراء. وتلك مهمّة تلائم النّثر، كما للشّعر مواضعه التي يختصّ بها.

إذن الفنّان: فنّ الشّعر، وفنّ النّثر أدّيا ويؤدّيان من الوظائف ما يؤدّيان، فقد تبرز وظيفة أحدهما بصورة أوضح من الآخر، ولكنّها لا تخفت كليّة. وعليه فإنّ المفاضلة وفق هذا المعيار الذي اعتمد عليه أنصار كلّ فريق هي مفاضلة غير مقنعة، كالمفاضلة بين حواسّ الإنسان؛ إذْ لكلّ حاسّة وظيفة مهمّة تؤدّيها، وتقصر غيرها من الحواسّ عن أدائها، كما تقصُر هي عن أداء أيّ حاسّة من الحواسّ الأخرى.

٣-مكانة الأديب الاجتماعيّة دليل على مكانة الفنّ:

نظر بعض من شُغلوا بالمفاضلة إلى المكانة الاجتماعيّة لصاحب الشّعر، أو لصاحب النّثر فإنْ ارتَقَت تلك المكانة فرقيّها بسبب علوّ فنّ صاحبها، وإنْ هان الأديب وذلّ فذلك بدنوّ فنّه. ومن أولئك الخالع(٢) (ت ٤٢٢هـ) يقدّم الشّعر؛ لأنّ صاحبه محتفىً به، وله حظوة عند الخلفاء وولاة العهود والأمراء خلافاً لصاحب النّثر(٣).

---

(١) المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر، ابن الأثير، تحقيق: محمد محيي الدّين عبد الحميد، المكتبة العصريّة، بيروت، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م، ج٢، ص٣٩٢- ٣٩٣.

(٢) هو الحسين بن أبي جعفر بن محمّد الخالع، أديب له شعر حسن، من مؤلفاته: كتاب تخيّلات العرب، وتفسير شعر أبي تمّام، وصناعة الشعر. (معجم الأدباء، ياقوت الحموي (المتوفى: ٦٢٦هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، ج٣، ص١١٤٦).

(٣) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيّان التوحيديّ، ص٢٥٢.

وناقَضَه في رأيه هذا ابن ثوابة الذي يرى تأخّر الشّعر بسبب دنوّ مكانة الشّاعر الاجتماعيّة، حيث يقول: "...لا ترى شاعراً إلا قائماً بين يدي خليفةٍ، أو وزيرٍ، أو أميرٍ باسط اليد، ممدود الكف، يستعطف طالباً، ويسترحم سائلاً؛ هذا مع الذلة والهوان، والخوف من الخيبة والحرمان" (١).

ويفضّل ابن سناء الملك-كذلك- النّثر؛ لأنّه يرفع مقام صاحبه، يقول: "وصناعةٌ تبلغ بها إلى الدرجة الرفيعة أشرف من صناعة لا توصل صاحبها إلى ذلك، وأنّ أكثر النّظم إذا كُشِف وُجِد لا يعبّر عن جد، ولا يترجم عن حقّ،..."(٢).

ولا يوافق الباحث النّاقدين السّابقين فيما ذهبا إليها؛ إذ غابت عنهما سطوة الشّعر في المجتمع الجاهليّ، وحاجة النّاس إليه آنذاك في تصريف أمورهم، وتسجيل أحداث حياتهم؛ لذا ارتفع مقام الشّاعر فهو حامل لواء فخر القبيلة، وناشر مآثرها، وهو حاميها، والذّائد عنها. وما كان احتفاء القبيلة بشعرائها إلاّ دليلاً على وقع الشّعر في القلوب. ولكنّ العرب لم يقلّلوا من شأن أصحاب النّثْر.

ونظر نظرة ابن ثوابة، وابن سناء الملك أبو منصور الثعالبيّ (ت ٤٢٩هـ) حيث إنّه قدّم النّثر للمكانة الاجتماعيّة التي يحظى بها الكُتّاب عند الملوك وأهل السّلطان في قوله: "ولا تزال طبقات الكُتَّاب مرتفعة عن طبقات الشّعراء. فإنّ الكتّاب وهم ألسنة الملوك. إنّما يتراسلون في جباية خراج، أو سدّ ثغر، أو عمارة بلاد، أو إصلاح فساد، أو تحريض على جهاد، أو احتجاج على فئة، أو تعزية

(١) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيّان التوحيديّ ، ص ٢٥٣.

(٢) سرّ الفصاحة، ابن سناء الملك الخفاجيّ، تحقيق عبد المتعال الصّعيديّ، مطبعة محمّد علي صبيح، القاهرة، ١٣٧٢هـ- ١٣٥٣م، ص ٣٣٩.

في رزيّة، أو ما شاكلها من جلائل الخطوب، ومعاظم الشّؤون"[١]. وذهب أبعد من ذلك حين حذّر من معاداتهم ورغّب في القرب منهم :" معاداة الكتّاب ليست من أفعال ذوي الألباب، وأنّ مماراتهم ندامة، ومسالمتهم سلامة، ومصادقتهم فائدة، وغنيمة باردة ... وقديماً أغنت كُتبهم عن الكتائب، ونابت آثار أيديهم عن القواضب، وأجري على أناملهم جسام المنائح والمواهب"[٢].

وممّا يدعو إلى العجب أن يتّكئ الثّعالبيّ –وهو النّاقد المشهور – على معيار المكانة الاجتماعيّة التي يحظى بها صاحب الفنّ عند السّلطان لوظيفة يخدمه فيها، دون النّظر إلى جوهر الفنّ الأدبيّ. والسّؤال الذي يطرح نفسه: هل تتوقّف جودة الفنّ على رضى السّلطان فحسب؟ وهل كان هذا الرضى متحقّقًا –دائمًا– بلون فنّي واحد في كلّ العصور؟

الشّعر كذلك أدّى وظيفةً حتى أيّام الدّعوة الإسلاميّة الأولى، ولا يُنسى دور الشّعراء في الذّود عن الإسلام وحامل لوائه –صلّى الله عليه وسلّم– بداية الأمر. حتّى عُرف حسّان بن ثابت –رضي الله عنه– بشاعر الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم–، وآزره في ذلك كعب بن مالك الأنصاريّ، وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهما.

نخلص منْ ذلك إلى أنّ المكانة الاجتماعيّة التي يحظى بها الأديب ليست سمة مائزة لتفضيل فنٍّ على آخر؛ إذْ حظي بها صاحب الشّعر، وصاحب النّثر كليهما. وكلّ ذلك موقوف على الإجادة والإتقان، فكم من الشّعراء في عصر النّابغة ، وعصر حسّان بن ثابت – رضي الله عنه–، وعصر المتنبي، وكم من

(١) رسائل الثعالبي، أبو منصور الثعالبيّ، تحقيق: علي الخاقانيّ، مكتبة دار البيان، بغداد، ١٩٧٢م، ص٣.

(٢) المرجع السّابق ، ص٥.

الكتّاب في عصر قسّ بن ساعدة الأياديّ، وعصر الحجّاج، وعصر عبد الحميد الكاتب لم يرتقوا إلى مراقي هؤلاء مع أنّهم يمتلكون آلتهم. وما ارتقى هؤلاء اجتماعيًّا؛ لأنّهم يقرضون الشّعر، أو يكتبون النّثر، ولكنّ المعوّل عليه في ذلك كلّه هو حسن الصّنعة وجودتها.

٤-المعيار الدينيّ والخُلقي في توجيه المفاضلة:

يعدّ المعيار الدّينيّ والخُلقيّ مِنْ أهمّ معايير المفاضلة بين الشّعر والنّثر، وهو معيار لجأ إليه أنصار النّثر مدافعين عنه، أو مهاجمين الشّعرَ. وفي المقابل لم نجد توظيفًا لهذا العامل عند أنصار الشّعر خلا محاولة بعضهم لردّ هجمات أنصار النّثر. وقد اتّخذ الدّارسون طرائق في توظيف هذا العامل، فمنهم مَنْ لجأ إلى بناء النّصّ القرآني ينقّب من خلاله عن مآثر للنّثر، أو مناقب للشّعر، ومنهم مَنْ لجأ إلى استخدام الدّين للنّثر، وكَوْن نصوصه جاءت منثورة، ومنهم مَنْ اتّخذ المعيار الخُلقيّ، ومنهم من اعتمد على توجيه نصوص دينيّة لذمّ الشّعر.

من الفريق الأوّل ابن طرارة (ت ٣٩٠هـ) يستشهد بقوله تعالى: "وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا"[١]. وقد قال معلّقاً :"ولم يقل: لؤلؤاً منظوماً؛ ونجوم السّماء منتثرة وإنْ كان انتثارها على نظام، إلاّ أنّ نظامها في حدّ العقل، وانتثارها في حدّ الحسّ..."[٢]. يريد ابن طرارة أنْ يجعل من الوصف (منثورًا)، ومن خَلْقِ اللهِ النّجومَ منتثرةً حجّة يفضّل بها النّثر. ومنهم أبو عابد الكرخيّ متحدّثًا عن شرف النّثر وعلوّ مكانته: "ومن شرفه أيضاً أنّ الكتب القديمة

(١) الآية (١٩)، سورة الإنسان.

(٢) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيديّ، ص٢٥١

والحديثة النّازلة من السّماء على ألسنة الرّسل بالتّأييد الإلهيّ مع اختلاف اللّغات كلّها منثورةٌ مبسوطة..." (١).

ويبدو أنّ ابن طرارة، وأبا عابد الكرخيّ لم يطّلِعا على نظرية النّظم عند عبد القاهر الجرجانيّ؛ ليدركا من خلالها أنّ كِلا الفنّين منظوم. أو على أقلّ تقدير أنّهما وَقَفَا عند رأي ابن هندو الكاتب الذي أورده أبو حيان التّوحيديّ:" إذا نُظِر في النّظم والنّثر على استيعاب أحوالهما وشرائطهما، والاطّلاع على هواديهما وتواليهما كان أنّ المنظوم فيه نثرٌ من وجه، والمنثور فيه نظمٌ من وجه، ولولا أنّهما يَسْتَهِمان هذا النّعت لما ائتلفا ولا اختلفا"(٢). وفي تقدير الباحث أنّ الذي توصّل إليه ابن طرارة، وأبو عابد الكرخيّ يعبّر عن النّقد المفتقر إلى الحجّة المقنعة، وأنّه ليعبّر عن محدوديّة الفكر النّقديّ في هذه المسألة.

وأمّا الفريق الثاني الذي انطلقت حجّته من جَعْل النّصوص الدينيّة منثورةً، ولم تأتِ منظومة فمنهم أبو هلال العسكريّ (ت ٣٦٥هـ) الذي يقول: " ومما يعرف أيضاً من الخطابة والكتابة أنّهما مختصّتان بأمر الدّين والسّلطان، وعليهما مدارُ الدّار، وليس للشّعر بهما اختصاص"(٣).

ومنهم ابنُ كعب الأنصاريّ (ت ٤٠٠هـ تقريبًا) حين يقول: " من شرف النّثر أن النّبي – صلّى الله عليه وسلّم– لم ينطق إلا به آمراً وناهياً، ومستخبِراً ومخبِراً، وهادياً وواعظاً، وغاضباً وراضياً، وما سُلِب النّظم إلا لهبوطه عن درجة النّثر، ولا نُزّه عنه إلا لِما فيه من النّقص، ولو تساوَيا لنطق بهما. وَلَمَّا اختلفا خُصَّ

(١) المرجع السّابق، ص٢٥٠.

(٢) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيديّ، ص٢٥١.

(٣) كتاب الصناعتين، أبوهلال العسكريّ، ص١٣٦

بأشرفهما الذي هو أجْوَل في جميع المواضع، وأجلب لكلّ ما يطلب من المنافع"[1].

ومنهم أبو عليّ المرزوقيّ(ت ٤٢١ هـ) الذي قدّم للنّثر؛ لأنّ القرآن الكريم الذي كان معجزًا إنّما وعاؤه النّثر، وأنّ تحدّي الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم– للعرب إنّما كان في الكلام المنثور[2].

تبدو آراء الذين قدّموا الشّعر على النّثر استنادًا إلى النّصّ القرآنيّ غير صائبة؛ ذلك بأنّ المواقف التي وقفها الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم– تقتضي أنْ يكون حديثه فيها منثوراً. ثمّ إنّه –صلّى الله عليه وسلّم– لا يقرض الشّعر، ولا عُلِّمَ الشّعر؛ لحكمة معلومة ليست بخافية على أهل العلم حقيقتها. ولئنْ كانت النّصوص الإسلاميّة منثورة فلا يعني ذلك الحطّ من قيمة الشّعر. أو أنّه منبوذ. فلو كان الشّعر من السّوء والانحطاط لوردت الإشارة إلى النّهي عنه، أو ذمّه في النّصوص الشّرعية. ألمْ يقف هؤلاء المستندون إلى هذا المعيار في المفاضلة على حديث المصطفى –صلّى الله عليه وسلّم– ""إنّما الشِّعْرُ كلامٌ، فَمِنَ الكَلامِ خَبيثٌ وطيّبٌ"[3]. أو أنّهم لم يلتفتوا إلى اتّخاذ الرّسول الكريم –صلّى الله عليه وسلّم–

(١) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، ص٢٥١.

(٢) شرح ديوان الحماسة لأبي تمّام، أبو عليّ أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقيّ، ، ج١، ص١٦.

(٣) ورد –مع اختلاف في الرواية في السنن الصغير للبيهقيّ، ج٩، ص٨٠. وفي حديث هشام بن عروة عن أبيه أنّ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال : « الشِّعر كلام حسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيحه » وقال إنّه حديث مرسل. وقال رُوي موصولاً بذكر عائشة ، ولكنّه ضعّف وصله.

شعراء منافحين عن الدّعوة وعن حامل لوائها؟؛ ليدركوا أنّ هذه الآراء التي ذهبوا إليها لم تقفْ على حقيقة الموقف الدّينيّ من الشّعر.

لقد قدّم ابن خلدون كلامًا طيّبًا أبطل فيه حجّةً من حجج أنصار النّثر، وهي الاتّكاء على كون النّثر شريفًا قياسًا إلى القرآن الكريم؛ إذ إنّه يُبْعد هذه الحجّة التي اُسْتُنِدَ إليها كثيرًا بقوله: "وأما القرآنْ وإن كان من المنثور إلاّ أنّه خارج عن الوصفين، وليس يسمّى مرسلاً مطلقًا ولا مسجعاً، بل تفصيلُ آيات ينتهي إلى مقاطع، يشهد الذّوق بانتهاء الكلام عندها، ثم يعاد الكلام في الآية الأخرى بعدها، ويثنى من غير التزام حرف يكون سجعاً ولا قافية".، وهو معنى قوله تعالى:" اللَّهُ نزلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُم..." [١] وقال تعالى: "... قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ..." وتسمى آخر الآيات فيه فواصل، إذ ليست أسجاعاً، ولا التزم فيها ما يلتزم في السّجع، ولا هي أيضاً قواف ..." [٢]. وذهب طه حسين أبعد من ذلك حين أخرج القرآن من قائمة النّصوص النّثريّة، حيث يقول: "" ولكنّكم تعلمون أنّ القرآن ليس نثراً، كما أنّه ليس شعراً، إنّما هو قرآن، ولا يمكن أنْ يسمّى بغير هذا الاسم، ... ولكنّه [٣] "... كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِير"[٤].

ومن الفريق الثّالث أبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤هـ)، ويعدّ أوّل مَنْ اعتمد المعيار الخُلقيّ في المفاضلة، وهو في نقده لمْ يَكُن متعصّبًا للشّعر أو للنّثر،

---

(١) الآية (٢٣)، سورة الزّمر.

(٢) مقدّمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، تحقيق: إيهاب محمد إبراهيم، مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص ٦٣٩.

(٣) من حديث الشعر والنثر، طه حسين، دار المعارف، مصر، ط١، ١٩٣٦م، ص٢٥.

(٤) الآية (١) سورة هود.

ولكنّه متشبّث بمعيار الأخلاق الذي يبدو على الأديب بناءً على فنّه، فهو يقول: "كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب، لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيّد عليهم مآثرهم، ويفخم شأنهم، ويهول على عدوهم ومن غزاهم، ويهيب من فرسانهم، ويخوف من كثرة عددهم، ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم. فلما كثر الشعر والشعراء، واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السوقة، وتسرعوا إلى أعراض الناس، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر. ولذلك قال الأول: «الشعر أدنى مروءة السري، وأسرى مروءة الدنيّ»"[1].

ووافَقَه في هذا الموقف أبو عليّ المرزوقي (ت ٤٢١هـ) الذي أخّر الشّعر لمآخذ خُلقيّة حين أُتّخِذ مكسبة وتجارة، وبه تعرّض الشّعراء إلى الأعراض، وبه وقع الكذب بوصف اللئيم بالكرم؛ طمعًا فيما عنده، وبِوَصف الكريم باللؤم؛ لتأخّر عطيّته. وبهذا انحطّت مكانة الشّعراء عن مكانة الكتّاب[2].

ولعامل الأخلاق –كذلك– أخّر الثّعالبي (ت ٤٢٩ هـ) الشّعر والشّعراء وذلك؛ لدنوّ غاياتهم التي رآها قاصرة على بكاء الأطلال، والتّشبب بالنّساء ... ويسوق من الشّواهد على ذلك بترفّع الأنبياء عن الشّعر، ويدعم فكرته بحادثة نفيِ امرئ القيس لمّا غرق في بحر الشّعر. وقد فات عليه أنّ النّفي إنّما كان بما تضمّن شعره من قيم منافية لطبائع أبناء الملوك، وليس بمجرد قرضه الشّعر. ويستند كذلك إلى مواقف بعض السّابقين ممّن كرهوا الشّعر، كأبي سعيد الرستميّ أشعر أهل أصفهان. [3].

---

(١) البيان والتبيين، أبو عثمان، عمرو بن بحر الجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ)، دار ومكتبة الهلال، بيروت: ١٤٢٣ هـ، ج١، ص ٢٠٣

(٢) شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، أبوعلي المرزوقيّ، ص١٦.

(٣) رسائل الثّعالبيّ، أبو منصور الثّعالبيّ، ص١

أمّا الفقيه النّاقد ابن حزم (ت ٤٥٦هـ) فقد كان لموقفه العنيف من فنّ الشّعر تأثير بالغ فيمن تلوه في التّنصّل من المنظوم، والهجوم عليه، وقد وطّأ لهم بمعيار الأخلاق. فاسمعه متحدّثاً عن ضربٍ من ضروب الشّعر التي صُنّف الشّعر وفْقها، وهو الهجاء: "فإن هذا الضّرب أفسد الضّروب لطالبه، فإنّه يهوّن على المرء الكون في حالة أهل السّفه من كناسيّ الحشوش والمعاناة لصنعة الزّمير المتكسّبين بالسّفاهة والنّذالة والخساسة وتمزيق الأعراض وذِكْر العورات، وانتهاك حرم الآباء والأمّهات، وفي هذا حلول الدّمار في الدّنيا والآخرة"(١).

وممّا قوّى اتّجاهه في المفاضلة هو أنّه معدود في الشّعراء النّقّاد، وهو عالم بقدر علمه في حلبة الشّعر، فما كان هجومه من قبيل: من جهل شيئاً عاداه، وإنّما هو النّاقد الخبير بهذا الفنّ "ولا يظن ظانّ أنّ هذا علم جهلناه فذممناه، فقد عَلِم من داخَلَنا أو بَلَغه أمرنا كيف توسّعنا في رواية الأشعار، وكيف تمكنّا من الإشراف على معانيها، وكيف وقوفنا على أفانين الشّعر ومحاسنه، ومعانيه وأقسامه، وكيف قوّتنا على صناعته، وكيف تأتي مقصده ومقطوعه لنا، وكيف سهولة نظمه علينا في الإطالة فيه والتّقصير ، ولكنّ الحقّ أولى بما قيل"(٢)

وينبئك حديثه عن الشّعر عن نقد معلّل، فهو يدعو إلى تجنّب أربعة أضرب منه هي: شعر الغزل، وشعر التّصعلك، وذكر الحروب، وأشعار التغرّب، ووصف المفاوز والبيد، وشعر الهجاء. ويذكر المفاسد التي يجلبها كلّ ضرب، ويذكر مرة من شهروا به. وفي مقابل ذلك لم يُشِر إلى أيّ مفسدة من مفاسد النثر.

---

(١) رسائل ابن حزم، أحمد بن حزم، تحقيق: إحسان عبّاس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٨٣م، ج٤، ص٦٨.

(٢) المرجع السابق، ص٦٩.

ولكن كلّ ما ساقه ابن حزم من حجج وشواهد تُؤخذ على الشّعر فإنّها لا تؤخّره، ولا تقعد بمنزلته أمام النّثر؛ ذلك بأنّ هذه المآخذ تتحقّق بالنّثر كما تتحقّق بالشّعر، فهي معانٍ يستطيع صاحبها أنْ يوصلها بكلٍّ.

وممّن دخلوا في حلبة المفاضلة بين المنظوم والمنثور ابنُ بسّام (ت ٥٤٢هـ)، وهو في الواقع لم يعقد مقارنة بين الفنّيْن ليخرج بها بمفاضلة، وإنّما كانت له مواقف معظمها تخصّه هو، عُدّ فيها مصطنعاً. ومن ذلك تصريحه في مقدّمة الذخيرة في مقولة عن الشعر:" ومع أنّ الشّعر لم أرْضه مركباً، ولا اتّخذته مكسباً، ولا ألفته مثوى ولا منقلباً؛ إنما زرته لماماً، ولمحته تهمّماً لا اهتماماً؛ رغبةً بعزّ نفسي عن ذلّه، وترفيعاً لموطئ أخمصي عن محلّه؛ فإذا شعشعت راحه، ودأبت أقداحه، لم أذقه إلا شميماً، ولا كنت إلا على الحديث نديماً ؛ وما لي وله، وإنّما أكثره خدعة محتال، وخلعة مختال، جدّه تمويه وتخييل، وهزله تدليه وتضليل"[١].

والناظر في شخصية ابن بسام ومؤلفاته – وبخاصة الذخيرة– يستغرب لموقفه من فنّ الشّعر، فهو قد قرض الشّعر، وهو الذي رصّع كتابه الذّخيرة بكثير من الأبيات الشّعرية. وهذا ما جعل إحسان عباس يقول مستغرباً :" أكان حقاً لا يؤمن بالشّعر، أم كان يداري نظرة سائدة في زمانه إلى الشّعر؟"[٢].

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، تحقيق: إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا– تونس، ط١، ج١، ص١٨.

(٢) تاريخ النقد الأدبيّ، د. إحسان عباس، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمّان، ١٩٩٣م، ص ٥١٠.

وقد فُسّر موقفه هذا بأنّه كان منطلقاً في نقده الشعرَ من نزعة دينيّة، وأخلاقيّة من أشعار معينة يراها مخالفة، وأخرى يراها مشينة لصاحبها كشعر الهجاء. (١) وأنّ شهرته بسبب النّثر وبخاصّة في كتابه "الذّخيرة" جعلته يدافع عنه. (٢)

ويضيف إحسان عبّاس عاملاً آخر لمجافاة ابن بسام الشّعرَ، وهو أنّه كان يؤرّخ للعلاقات بين أناس عاصرهم، وشهدوا تديّنه؛ لذلك كان حريصاً على إبعاد كلّ ما يؤذي مشاعرهم. (٣) وإنْ صحّ تفسير إحسان عبّاس لموقف ابن بسّام من فنّ الشّعر فيمكننا جعل موقفه من الشّعر موقفاً غير متّسم بالموضوعيّة.

وأمّا الفريق الرّابع فكان جهدهم منصبًّا في ذمّ الشّعر استنادًا إلى توجيه آيات قرآنية، وأحاديث نبويّة، أو الاستشهاد بوقائع تاريخيّة يَرَون فيها حطًّا من قدر الشّعراء، ومن ثمّ الحطّ من مكانة الشّعر. ومن هؤلاء أبو القاسم الكلاعيّ (ت ٥٥٤هـ) وقد استدلّ على معايب الشّعر بحديث الرسول – صلّى الله عليه وسلّم–: "لأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحًا يَرِيهِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا"(٤)، حجّة الكلاعيّ على الشّعر أنّه داعٍ إلى سوء الأدب، وفساد المنقلب، وهو مسلك –

(١) مقال: المفاضلة بين الشعر والنثر في التراث النقديّ الأندلسيّ مجلة جامعة أم القرى، د. راغب شريف علاونة، العدد ٣٧، ١٤٢٩هـ ص٤٧٠.

(٢) المرجع السابق، ص٤٧١.

(٣) تاريخ النقد الأدبيّ، إحسان عباس، ص٥١١.

(٤) صحيح مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت)، ج٤، الرقم (٢٢٥٨)، ص ١٧٦٩.

بحسب تقديره- يُلزُّ الشاعرُ إليه لزّاً؛ لصعوبة طريق الشّعر، فيُضطرُّ بسببه إلى الغلو، فيفسد يقينه، ويكذب. (١)

يستشهد الكلاعيّ بالحديث الشّريف وقد فات عليه أنّ المعنيَّ به ضربٌ من الشّعر، وتؤكّد ذلك مواقف للرسول – صلّى الله عليه وسلّم- ونصوص له في شأن فنّ الشعر، وكذلك الاستثناء في الآية القرآنية "...إلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا"(٢).

وبشأن توجيه النّصوص القرآنيّة وتوظيفها؛ لتفضيل النّثر على الشّعر لم يقف أنصار المنظوم مكتوفي الأيدي مستسلمين، بل دفعوا هذا التّوجيه الخاطئ للنّصوص، ومن هؤلاء ابن رشيق القيرواني الذي خرج يردّ حُججَ أنصار النّثر، ويدفع سهامهم التي يوجّهونها إلى الشّعر. فعندما يحتجون بقوله تعالى:" وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِين" (٣)، في الحطّ من قَدْر الشعر يرفض ما ذهبوا إليه –وأحسبه محقّاً في ذلك- وتقوّي رأيَه في الرّفض أسانيدُ كثيرةٌ في القرآن والحديث ممّا ورد في البحث سابقًا. بل إنّه يرى أنّ الآية رافعة من شأن الشّعر، حيث يقول: " ألا ترى كيف نسبوا النّبيّ – صلى الله عليه وسلم- إلى الشّعر لما غُلبوا وتبيّن عجزهم؟ فقالوا: هو شاعر، لما في قلوبهم من هيبة الشّعر وفخامته، وأنّه يقع منه ما لا يلْحق، والمنثور ليس كذلك"(٤). ويدفع

---

(١) إحكام صنعة الكلام، أبو القاسم الكلاعيّ، تحقيق: د. محمد رضوان الدّاية، دار الثّقافة، بيروت، ١٩٦٦م. ص ٣٦، ٣٧.

(٢) الآية (٢٢٧)، سورة الشعراء.

(٣) الآية (٦٩)، سورة يس.

(٤) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيروانيّ، ص٢١.

حجّتهم أيضاً بقولـه: "ولـو أنّ كـون النبـيّ –صـلّى الله عليـه وسـلّم– غيـر شـاعر غضّ من الشّعْر، لكانت أمّيّته غضاً من الكتابة،..."(١).

ويتّخذ الكلاعـيّ (ت ٥٥٤هـ) مـن بعض الوقائع التّاريخيـة حجّـة للنّيل مـن الشّعر، مثل حكاية ردّ الخليفة عثمان بن عفان –رضي الله عنه– على رسالة من عبد الله بن أبي ربيعة. (٢) كما يتّخذ –أيضاً– من أقوال سائرة مآخذ على الشّعر، منهـا: "اللهـى تفتـق اللّهـى"، وقـول العامـة: "بيـع الشّعر بالسّعر"، وقولهم: "لسان الشّاعر أرض لا تخرج الزّهر حتّى ينسكب المطر"، وقول أبي سعيد المخزومي: (السّريع)

الكلــبُ والــشّاعرُ فــي حالــةٍ يــا ليــتَ أنّــي لــمْ أكــنْ شــاعراً
أمَــا تــراهُ باســطاً كفّــه يــستطعمُ الــواردَ والــصّادرا(٣)

وينهجَ نهج الكلاعـيّ علي بن خلف (ت٤٥٠هـ) ويستدل بالآيتين اللتين أكثرَ أنصارُ النّثر من إيرادهما وهما قوله تعالى: " وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ"(٤) وقوله تعالى:" وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُون". وهي حجج ساذجة تُنبئُ عن عدم وعي وفهم متعمّق لمراد الآية.

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) أورد صاحب الأغاني: كان عبد الله بن أبي ربيعة عاملاً لعثمان بن عفان على الجند، فكتب إلى عثمان إني قد اشريت غلاماً حبشياً يقول الشعر. فكتب إليه عثمان لا حاجة لي إليه فارده. فإنما حظ أهل العبد الشاعر منه إن شبع أن يتشبب بنسائهم، وإن جاع أن يهجوهم، فرده فاشتراه أحد بني الحسحاس. (الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، دار الفكر، بيروت، تحقيق: سمير جابر، ج٢٢، ص٣٠٧).

(٣) التمثيل والمحاضرة، أبو منصور الثعالبيّ، تحقيق: عبد الفتاح الحلو، الدار العربية للكتاب، الرياض، ١٤٠١هـ– ١٩٨١م، ص ١٨٧. ورسائل الثعالبيّ، الثعالبيّ، ص ٤.

(٤) سورة الحاقّة، الآية (٤١).

ونجد النّقد الأخلاقيّ حاضراً في مفاضلة عليّ بن خلف بين النّظم والنّثر، وبخاصة موقفه من التّراث الشّعريّ حتى وصل إلى درجة المبالغة، فهو يقول: "والشّعر إنّما بُنِي على معانٍ أكثرها مستحيل، وأقوال جلّها كذب، ولا سيما الشّعر الجاهليّ الذي هو أفحل الأشعار؛ فإنّه يشتمل على قول البهتان، وشهادة الزّور، وسبّ الأعراض، وقذف المحصنات، والقدح في الأنساب الصّريحة"[1]. يقول علي بن خلف هذا كلّه مع أنّ واقع الشّعر –ومنه الجاهليّ– ليس منحطّاً إلى هذه الدرجة. وكأنّ كلّ ما قيل في شأن الشّعر من كلام طيبٍ لم يُقَلْ.

وبعد ذلك يحكم بانحطاط النّظم عن درجة النّثر، ويستدعي حال امرئ القيس، وحال النّابغة الذي آلا إليه بسبب الشّعر؛ ليعزّز فكرته، ويخاطب العقل؛ ليثبت نظريته في المفاضلة[2].

ويرى القلقشنديّ أنّ النّظم مذموم والنّثر غير ذلك، فقد برئ منه كتاب الله تعالى، وأنّ النّبي الكريم –صلّى الله عليه وسلّم– نُزّه عن قوله؛ لما في الشّعر من دعوة إلى الباطل! بينما النّثر كلّه دعوة إلى الحقّ والجدّ والفلاح[3]. وفي تقدير الباحث ألاّ عيب في أحدهما من هذه النّاحية، بل العيب في القائل، ومن قَدَر الشّعر أنّه يُحفظُ فيبقى، فيعرف النّاسُ منه الغثّ والسّمين. وينسون فاحش القول وباطله من جهة النّثر وهو كثير. ولولا أنّ النّثر مهنة القلقشنديّ لوضع بين أيدينا كثيراً ممّا قيل نثراً في إيذاء الرسول –صلى الله عليه وسلّم–. فهذا أبو لهب الّذي نزلت فيه آيات تتلى، بل نزلت سورة في شأنه، أينسى ما قال في سبّ النّبيّ

(١) موادّ البيان، أبو الحسن علي بن خلف، ص٤٢.

(٢) المرجع السّابق، ص٤٤.

(٣) صبح الأعشى في صناعة الإنشا، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي، (ت٨٢١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت،(د.ت). ج١، ص٩٠.

الكريم؟ بل أينسى إيذاء النّضر بن الحارث؟ أمْ يُنسى ما قال أبو جهل سابّاً رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– وغيرهم كثير، ألم يكن ذلك كله نثراً؟.

٥–المعايير الفنّيّة في المفاضلة بين الشّعر والنّثر:

بَدَتْ أولى الإشارات إلى المعايير الفنّية في المفاضلة بين الشّعر والنّثر عند عبد الله بن المقفع(ت١٤٢هـ) والجاحظ (ت٢٥١هـ) اللذين لم يميّزا بين الشّعر والنّثر إلاّ بما يحقّق كلّ من الفنّين بلاغة القول. يقول ابن المقفّع: " البلاغة اسم جامع لمعانٍ تجري في وجوه كثيرة: فمنها ما يكون في السّكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الحديث، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جواباً، ومنها ما يكون ابتداء، ومنها ما يكون شعراً، ومنها ما يكون سجعاً وخطباً، ومنها ما يكون رسائل. فعامّة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة"(١).

ويقول الجاحظ: " والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجب دون الضّمير حتى يفضي السّامع إلى حقيقته ويهجم على محصوله كائناً ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان ذلك الدّليل؛ لأنّ مدار الأمر والغاية الّتي إليها يجرى القائل والسّامع إنّما هو الفهم والإفهام. فبأيّ شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذاك هو البيان في ذلك الموضع"(٢).

وابن المقفّع والجاحظ يجعلان لكلّ من النّثر والشّعر وظيفة يؤدّيانها. وبقدر إصابة المعنى نستطيع الحكم على جودة الفنّ، فقد تتحقّق إصابة المعنى أو مجانبته، وكلّ ذلك يكون وفقًا لملكة الأديب، ومقدرته على توظيف اللّغة، وتلك لا تعطي النّاقد مسوّغًا لتفضيل أحد الفنّين على الآخر.

---

(١) البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ،ج١، ص١١٥–١١٦.

(٢) المرجع السّابق، ج١، ص٧٦.

وبعد هذه النّظرة التي أراها صائبة يطالعنا من الدّارسين من يفضّل النّثر على الشّعر، ومن يقدّم الشّعر على النّثر دون حسبان لاختلاف طبيعة الفنّين، واختلاف وظيفة كلّ منهما.

ومن الفريق الأوّل أبو عابد الكرخيّ (ت ٤٠٠هـ) الذي قدّم النّثر؛ لتحقّق الوحدة فيه، وأنّه بعيد عن التّكلّف الذي يلزّ الشّعر إليه [١]. ويرى ذلك بيّنًا في الضّرورات الشّعريّة التي برئ منها النّثر. ويناصره في موقفه هذا الكلاعيّ (ت٥٥٤هـ) وقد أُخّر الشّعر بسبب الموسيقا المتحقِّقة فيه "ومن معايب الشّعر ما فيه من الوزن؛ لأنّ الوزن داع للترنّم، والترنّم من باب الغناء..."[٢].

ومن هذا الفريق القلقشنديّ قدّم النّثر على الشّعر؛ لأنّ المعاني في الشّعر أحياناً تأتي تابعة للألفاظ، وفقاً لما يباح من الضّرورات الشعرية[٣]. وهو هنا يستشهد بشاهدين: أحدهما- كلام منثور كان في غاية البراعة، نُظم فقصر معناه وحُمّل من الألفاظ ما فيه زيادة، وثانيهما- كلام منظوم فَنُثر فأضحى في غاية الجمال[٤]. وهو استشهاد غير كافٍ -في تقديرنا- للخروج بحكم خطير كهذا. ثمّ إنّ الضّرورات الشّعرية ليست بالسّمة الغالبة على الشّعر حتى تقصر به هذا القصور الذي صوّره القلقشنديّ، وأنّها -أيضًا- ليست مؤثرة لدرجة تجعل المعاني تابعة للألفاظ.

(١) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيديّ، ص٢٥٠.

(٢) إحكام صنعة الكلام، أبو القاسم الكلاعيّ، ص٣٨.

(٣) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القلقشندي، ص٨٩.

(٤) ينظر: النّصوص التي استشهد بها القلقشنديّ في المصدر نفسه.

ومن الفريق الثّاني أبو الحسن الحاتميّ (ت ٣٨٨هـ) وقد قدّم الشّعر؛ لجمال مطالعه، ونصاعة مقاطعه، وفصاحته[١]. ومنهم أبو هلال العسكري(ت٣٩٥هـ) الذي قدّم الشّعر؛ لما فيه من ألحان ونغم غير متحقّق في النّثر، يقول: " ومما يفضل به الشّعر أنّ الألحان التي هي أهنى اللّذات إذا سمعها ذوو القرائح الصّافية، والأنفس اللّطيفة، لا تتهيّأ صنعتها إلا على كلّ منظوم من الشّعر، فهو لها بمنزلة المادّة القابلة لصورها الشّريفة"[٢].

لا ينكر الباحث إعجاب كلّ فريق بأحد الفنّين: الشّعر، أو النّثر، فكلّ ناقد قدّم ما يُظهر جمال أحدهما، وإنْ كان هناك تحفّظ فهو عند مفاضلة كلّ ناقد بين الفنّين، فللشّعر مجاله، وموضوعاته، وغاياته ووظائفه، كما للنّثر مجاله وموضوعاته ووظائفه. فالمفاضلة هنا قد تصلح بين شاعرين في حلبة، أو بين ناثرين فيما يختصّ به النّثر.

٦-تأثير الفنّ في المتلقّي:

لجأ إلى هذا المعيار أصحاب الشّعر وحدهم، ولعلّهم يقصدون التّأثير في وجدان المتلقّي، وهذا بيّن من خلال مقولاتهم في هذا الشّأن؛ وهو معيار غير حاسم في المفاضلة، فالتّأثير متحقّق بكلا الفنّين: الشعر والنثر.

وممّن فضّلوا الشّعر وفق هذا المعيار معاوية بن أبي سفيان عندما خُيَّر بين الشّعر والنّثر، فقال :"بل شعراً، فإنّه أمتع".[٣] وما المتعة إلا لتأثير الشّعر في نفس معاوية. ومنهم أبو الحسن الحاتميّ (ت ٣٨٨هـ) فضّل الشّعر؛ لتأثيره في

(١) حلية المحاضرة، أبو علي محمد بن الحسن بن المظفّر الحاتميّ، تعليق: مظهر الحجّي، وزارة الثقافة والإعلام، دمشق، ٢٠٠٠م، ص٢٠.

(٢) كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري ، ص١٣٨.

(٣) الكامل، أبو العباس المبرّد، ج٣، ص١٤٥٣.

النّفوس، فهو وسيلة لدفع الخير، وسلاح لردع اللّئيم. ويمتدح فيه العنصر الموسيقيّ؛ ما جعله أرشق في الأسماع، وأعلق بالطّباع[1]. ومنهم أبو هلال العسكريّ (ت٣٩٥هـ) حيث يقول:" ومما يفضل به غيره أنّه ليس يؤثر في الأعراض والأنساب تأثير الشّعر في الحمد والذمّ شيء من الكلام، فكم من شريف وضع، وخامل دنئ رفع، وهذه فضيلة غير معروفة في الرّسائل والخطب"[2].

في تقديري أنّ التّأثير في المتلقّي ليس معيارًا حاسمًا للمفاضلة بين الشّعر والنّثر إلاّ عند الفرد. ولا يمكن أنْ يكون معيارًا يصدق على كلّ متلقٍّ. كما أنّ التّأثير يتحقّق بعوامل عدّة قوامها الحال والمقام.

٧- افتراض مقاييس للمفاضلة:

إضافة إلى تلك المعايير التي أوردتُها على الرغم مِن أنّها لم تُفلح في حسم المفاضلة؛ لاختلاف طبيعة الفنّين بدا بعضُ الدّارسين يفاضلون بين الشّعر والنّثر، ويعتمدون في مفاضلتهم على فرضيّات قائمة على الخيال، وعليها يبنون آراءهم في المفاضلة.

ومن هؤلاء ابن طرارة (ت ٣٩٠هـ) [3] الذي بنى صورةً مقابلةً لكّل من النّثر والشّعر من عنده حيث شبّه النّثر بالمرأة الحرّة، وشبّه الشّعر بالأمَة، وأقام المقابلة

---

(١) حلية المحاضرة، أبو علي محمد بن الحسن بن المظفّر الحاتميّ، ص٢٠.

(٢) كتاب الصناعتين، أبوهلال العسكريّ، ج١، ص١٣٧.

(٣) هو المعافي بن زكريا بن يحيى بن حمّاد بن داود النّهروانيّ الجريريّ بفتح الجيم نسبة إلى ابن جرير الطّبريّ، المعروف بابن طرارة، كان من أعلم النّاس بفقه مذهب ابن جرير، والنّحو واللّغة، وفنون الأدب، والأخبار، والأشعار، وكان ثقة ثبتاً، أخذ الأدب عن أبي عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة المعروف بنفطويه وغيره. (معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ج٢، ص٤٦١).

على أساس أصْل كلّ منهما وعراقته حيث يقول: :"النّثر كالحرّة، والنّظم كالأمَة، والأمَة قد تكون أحسن وجهاً، وأدمثَ شمائل، وأحلى حركات؛ إلا أنّها لا توصف بكرم جوهر الحرّة ولا بشرف عرقها، وعتق نفسها وفضل حيائها." هي صورة افتراضية افترضها، وبنى عليها حكمه في المفاضلة قبل أنْ يُقنع القارئ بها. وليته أقام هذه المقابلة بسبب انعتاق النّثر من قيود القافية، والموسيقى، والوزن الشّعريّ، وتقييد الشّعر بذلك.

وأمّا أبو عابد الكرخيّ (ت ٤٠٠هـ) فيقدّم النّثر؛ لكونه أصل الكلام، وأنّ النّظم فرع منه. وهذا أمر لا يجعل للنّثر التقدمة. ويعمد إلى الفلسفة؛ ليدعم رأيه حين قال: " النّثر أصلُ الكلام، والنّظم فرعه؛ والأصل أشرف من الفرع، والفرع أنقص من الأصل؛ لكنْ لكلّ واحد منهما زائناتٌ وشائنات، فأمّا زائنات النّثر فهي ظاهرةٌ، لأنّ جميع النّاس في أوّل كلامهم يقصدون النّثر، وإنّما يتعرّضون للنّظم في الثّاني بداعيةٍ عارضة، وسببٍ باعث، وأمرٍ معين والأصل أشرف من الفرع، والفرع أنقص من الأصل ..." [١].

ونهج أحمد بن محمد كاتب ركن الدّولة (ت ٤٠٠هـ) نهْجَ ابن طرارة بتشبيه النّثر، والنّظم بشيئين من عنده. ثمّ بنى على ذلك التّشبيه حكمَه الذي يريده، حين يقول: "الكلام المنثور أشبه بالوشي، والمنظوم أشبه بالنيّر المخطط، والوشي يروق ما لا يروق غيره"[٢]. ويسوق مِنْ بعدِ ذلك حججاً واهية؛ ليدعم فكرته مما دفعه إلى الاستشهاد بما لا يُقنع، ومن ذلك أنّه يرى في كلام العامّة "كنّا في نثار فلان ..."[٣] تقديماً للنّثر على النّظم.

---

(١) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيّان التوحيديّ، ص٢٥٠.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) المرجع السّابق، ص٢٥١.

ويذهب عبد الكريم النّهشليّ إلى أنّ الشّعر مقترن بالفِطنة والذكاء، يقول:" والشّعر عندهم الفطنة. ومعنى قولهم: ليت شعري: ليت فطنتي. والشّعر أبلغ البيانين، وأطول اللّسانين، وأدبُ العرب المأثور، وديوان علمهم المشهور ..." (١).

ويقول عيسى الوزير: "النّثر من قبل العقل، والنّظم من قبل الحسّ، ولدخول النّظم في طيّ الحسّ دخلت إليه الآفة، وغلبت عليه الضّرورة، واحتيج إلى الإغضاء عمّا لا يجوز مثله في الأصل الذي هو النّثر"(٢). وهذا حكم غير مطابق للواقع، فليس كلّ نثر فنيّ منبعه العقل، وليس كلّ نظم قائم على الوجدان والحسّ، فكلاهما آخذ من العقل والحسّ شيئاً. ولو حدث ذلك فما الذي يعيب الأدب والأديب؟.

ويقدّم السلاميّ(٣) (ت٣٩٣هـ) النّظمَ بما وجد من اهتمام الباحثين في شأنه؛ حيث درسوا قوافيه، وتوسّعوا في تصاريفها، وفي بحوره، بينما لم يحْظَ النّثر باهتمامٍ كهذا(٤). وهي حجّة ضعيفة لتقديم النّظم. ويؤخّر النّثر بحسبانه حديث الصّفوة والخاصّة. ومن حججه غير المقبولة في تقديم النّظم اتّكاؤه على شائع القول:" ما أحسن هذه الرّسالة لو كان فيها بيتٌ من الشّعر، ولا يقال: ما أحسن هذا الشّعر لو كان فيه شيءٌ من النّثر؛ لأنّ صورة المنظوم محفوظة، وصورة

---

(١) الممتع في صنعة الشّعر، عبد الكريم النهشليّ، ، ص ١٩.

(٢) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيديّ، ص٢٥١.

(٣) هو أبو الحسن، محمد بن عبد الله السّلاميّ، شاعر. قال عنه أبو حيّان التوحيديّ: " ... حلو الكلام، منّسق النّظام، كأنّما يبسم عن ثغر الغمام خفيّ السّرقة، لطيف الأخذ، واسع المذهب، لطيف المغارس، جميل الملابس؛ لكلامه ليطةٌ بالقلب، وعبثٌ بالروح، وبردٌ على الكبد" (الإمتاع والمؤانسة، أبو حيّان التوحيديّ، ص١٠٤)

(٤) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيّان التوحيديّ، ص٢٥١.

المنثور ضائعة".[١] وهي حجّة تعكس ضعف الرّوح النّاقدة مثلما نجد عند كثير ممّن تناولوا الموضوع.

ويحْكُم علي بن خلف(ت ٤٥٠هـ) بأفضليّة النّثر وتأخّر النّظم عنه؛ بسبب أنّ الشّعر لا يقدر على نقل المنثور إلى النّظم مع المحافظة على جماله ورونقه، وقوّته في تأدية المعاني. [٢] ولعلّه لم ينصف هنا حينما أورد آياتٍ قرآنيةً عبّر عنها الشّعراء نظماً؛ إذ كيف يوضع كلام البشر مهما بلغت درجته نظماً، أو نثراً في مقابل كلام الله تعالى المعجز؟ إنّها الموازنة المحسومة النتيجة. هذا فضلاً عن أنّ القرآن لا يعدّ نظماً أو نثراً وفق معايير النقد الأدبيّ.

٨–المحايدون ورفض المفاضلة ومعاييرها:

تعدّ مقولة الجاحظ عن البيان " والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجب ..."[٣]مقولة ممهّدة لردم الهوّة بين أشكال التّعبير الأدبيّ من حيث هي، فلا تمايز، ولا مفاضلة بين أشكال الأدب إلاّ بقدر إبراز المعنى، وعلى هذا فالجودة أو الرّداءة في العمل الفنّي تكمن في مقدرة الأديب أو ضعفه في سبك عمله الأدبيّ. وتقرب من هذه الفكرة ما أورد عبد الله بن المقفّع متحدّثًا عن البلاغة ما أشير إليه بداية البحث.

ومن أصحاب النّظرة التّوفيقية البعيدة عن التّعصّب إلى هذا أو ذاك أبو سليمان المنطقيّ (ت٣٨٠هـ) الذي أحسبه أعاد الأمر إلى نصابه، ونظر إلى المسألة من النّاحية الفنّيّة. فقد أقام الأمر وفقاً لإجابة السّؤال: هل استطاع كلّ من النّاظم والنّاثر إيصال المعاني إيصالاً سليماً؟ وفي الإجابة يكْمن عنده الحسن أو

(١) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيّان التوحيديّ، ص٢٥١.

(٢) موادّ البيان، أبو الحسن علي بن خلف، ص ٤٤.

(٣) البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ج١، ص٧٦.

القبح، وبها تكون المفاضلة. ولعلّه من المفيد أنْ نورد عبارته في هذا الشّأن: "المعاني المعقولة بسيطةٌ في بحبوحة النّفس؛ لا يحوم عليها شيءٌ قبل الفكر، فإذا لَقِيَها الفكر بالذّهن الوثيق والفهم الدّقيق ألقى ذلك إلى العبارة، والعبارة حينئذ تتركّب بين وزنٍ هو النّظم للشّعر، وبين وزن هو سياقه الحديث؛ وكلّ هذا راجعٌ إلى نسبةٍ صحيحة أو فاسدة، وصورةٍ حسناء أو قبيحة، وتأليفٍ مقبولٍ أو ممجوج، ... فإذا كان الأمر في هذه الحال على ما وصفنا فللنّثر فضيلته التي لا تنكر، وللنّظم شرفه الذي لا يجحد ولا يستر..."[1].

ولعلّ أبا سليمان هنا متأثّر بنظريّة النّظم عند عبد القاهر الجرجانيّ: هل أفضى المنطوق بمراد المتحدّث؟ وهل استطاع كلّ من الشّاعر والنّاثر التّعبير عمّا يجول في فكره من معانٍ فأخرجها إخراجاً حسناً؟

وأمّا ابن هندو الكاتب (ت ٤٢٠ هـ) فلا يرى حدوداً فاصلة قاطعة بين الشّعر والنّثر؛ إذْ كلّ منهما آخذ من الآخر شيئاً. "إذا نُظر في النّظم والنّثر على استيعاب أحوالهما وشرائطهما، والاطّلاع على هواديهما وتواليهما كان أنّ المنظوم فيه نثرٌ من وجه، والمنثور فيه نظمٌ من وجه، ولولا أنّهما يستهمّان هذا النّعت لما ائتلفا ولا اختلفا"[2]. وعلى هذا فإذا تقدّم أحدهما فللآخر فضلٌ في تقدّمه، وإذا تأخّر فهو نائل كِفلاً من تأخّره.

ويتناول السّرقسطيّ(ت ٥٨٣هـ)حجج أنصار الشّعر والنّثر في إحدى مقاماته[3]. وخلُص إلى وساطة أرضى بها الفريقين. فقال في النّظم:" والشّعر فحل عقيم، وسفر مقيم، ومبغض مودود، ومعذّر مجدود. عَلِقَتْه النّفوس علاقةً جعلته

(١) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيديّ، ص٢٥٣

(٢) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيديّ ، ص٢٥٢.

(٣) ينظر المقامة الخمسين.

لآمالها سبباً وعلاقة. وإنْ شابوه ومِيناً، فقد أغضوا عليه عيناً. وإنّما حمده أوفر من ذمّه، وشهده أكثر من سُمّه ..." (١). وقال مُرضياً أصحاب النّثر: "وأمّا النّثر فأنثى ولود، وزند لا ركاب ولا صلود، عين ثرّة، وأمّ بَرّة، له موضع ومكانة، وعزّة واستكانة، يحلو لي ويمرّ، ويحلّ ويمرّ، يلج في كلّ نادٍ، ويقدح في كلّ زنادٍ ... هو الدرّ منظوماً أو منثوراً، والحكم متروكاً أو مأثوراً. وما يدرّ الدرّ إنْ لم تنظمه النواظم".(٢)

ويقدّم السّرقسطيّ بعد هذا خطاباً نقديّاً إلى الفريقين يشي فيه ببطلان المفاضلة بين المنظوم والمنثور، وليس له حجّة بيّنة غير الجنوح إلى الفلسفة :" فلا تُفَضِّلا قائلاً على قائل، إلا بفضل فاضل، وطول طائل، والإحسان ضروب، والشّمس طلوع وغروب، والقمر نقص وكمال، وقبح وجمال، والمرء يمين وشمال ..." (٣).

والنّاظر في إسهام السّرقسطيّ في القضية يدرك أنّه لم يقدّم نقداً علميّاً، بل كان مهتمّاً بتحقيق الأسلوب الأدبيّ، حيث جعله غاية، فغاب عنه البحث العلميّ المستند إلى الحجج التي تخاطب العقل.

ويأتي عبد الرحمن بن خلدون، وقدْ قدّم حديثاً علميًّا؛ ليخلص من خلاله إلى بطلان المفاضلة. فيبدأ بتعريف كلا الفنّين ثم يقول: "وكلّ واحد من الفنّين يشتمل على فنون ومذاهب في الكلام. فأما الشّعر فمنه المدح والهجاء والرّثاء. وأما النّثر فمنه السّجع الذي يؤتى به قطعاً، ويلتزم في كلّ كلمتين منه قافية واحدة يسمّى

(١) المقامات اللزومية، السرقسطيّ، تحقيق بدر أحمد ضيف، الهيئة المصريّة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٨٢م، ص ٥٥٧.

(٢) المرجع السّابق، ص ٥٥٨.

(٣) المرجع نفسه.

سجعاً، ومنه المرسل ..." [1]. قسّم الشّعر من حيث الموضوعات، والنّثر من حيث الأسلوب. وأحسبه يريد بذلك الإشارة إلى اختلاف الفنّين؛ ليخدم مراده من بطلان المفاضلة. ولكنّها على كلّ حال ليست قسمة منطقيّة. غير أنّنا نجده في فقرات تالية يشير إلى اختصاص كلّ من الفنّين بموضوعات لا تصلح للآخر. "واعلم أن لكلٍّ واحد من هذه الفنون أساليب تختصُّ به عند أهله لا تصلح للفنّ الآخر، ولا تستعمل فيه، مثل النّسيب المختصّ بالشّعر، والحمد والدّعاء المختصّ بالخطب، والدّعاء المختصّ بالمخاطبات وأمثال ذلك"[2] ويقصد بالأساليب – كما هو بيّن من تفصيله– الموضوعات التي يختصّ بها كلا الفنّين.

خلص هؤلاء إلى أنّ المفاضلة بين الشّعر والنّثر غير ممكنة؛ لاختلاف طبيعة كلٍّ، وعليه فكلّ منهما له رسالته، وله موضوعاته، ومجالاته التي يصلح لها. ويبدو هذا هو ما قصّر بمعايير المفاضلة أن تُحرزَ أي خطوة للمضيّ قدمًا لإحراز أفضليّة الشّعر على النّثر أو النّثر على الشّعر.

**

(١) مقدّمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، ص ٦٣٩.

(٢) المرجع نفسه.

الخاتمة

خلص البحث إلى نتائج عدّة، أهمّها:

١- بدت المفاضلة في بواكيرها بعيدة عن التعصّب لأحد الفنّين، وأنّها اقتصرت على الإعجاب بأحدهما دون الانتقاص من قدر الآخر؛ ذلك لقناعة الأولين بأنّ لكلٍّ رسالته، ولكلّ تأثيره في صعيد آخر.

٢- اعتمد الدّارسون الذين عرضوا للمفاضلة بين الشّعر والنّثر على معايير غير حاسمة للقضيّة؛ وذلك لاختلاف الجنسين الأدبيين من حيث التّركيب والوظيفة.

٣- قَصَر بعضُ النّقاد المعيار الذي اعتمدوه في المفاضلة على زمان النّاقد دون الالتفات إلى أزمان سابقة، أو التّحسّب للقادم؛ ممّا أوقع التّناقض في النّظر إلى النّثر أو إلى الشّعر، فبينما رأى بعضهم الشّعر فضيلة في زمان وفق ذلك المعيار رآه بعضهم نقيصة في زمان آخر.

٤- اشترك كلّ من أنصار النّثر، وأنصار الشّعر في الاستعانة بكلّ المعايير المطروحة، خلا معيار الدّين والقيم الخُلُقيّة الذي انفرد به أنصار النّثر، وتحاشى توظيفه أنصار الشّعر.

٥- اعتمد النّاقد على أكثر من معيار في المفاضلة بين فنّ الشّعر، وفنّ النّثر.

٦- جاءت الشّواهد من النّصوص النّثريّة، والنّصوص الشّعرية قليلة؛ وذلك لطغيان الذّاتيّة، حتى بدا الأمر وكأنّه مناصرة للفنّ الذي عُرف به النّاقد.

المصادر والمراجع

- إحكام صنعة الكلام، أبو القاسم الكلاعيّ، تحقيق: د. محمد رضوان الدّاية، دار الثّقافة، بيروت، ١٩٦٦م.
- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١٥، ٢٠٠٢ م.
- الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد بن العباس (المتوفى: نحو ٤٠٠هـ)، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ.
- البيان والتبيين، أبو عثمان، عمرو بن بحر الجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ)، دار ومكتبة الهلال، بيروت: ١٤٢٣هـ.
- تاريخ النقد الأدبيّ، د. إحسان عباس، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمّان، ١٩٩٣م.
- التمثيل والمحاضرة، أبو منصور الثعالبيّ، تحقيق: عبد الفتاح الحلو، الدار العربية للكتاب، الرياض، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.
- حلية المحاضرة، أبو علي محمد بن الحسن بن المظفّر الحاتميّ، تعليق: مظهر الحجّي، وزارة الثقافة والإعلام، دمشق، ٢٠٠٠م.
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، تحقيق: إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، ط١، (د.ت).
- رسائل الثعالبي، أبو منصور الثعالبيّ، تحقيق: علي الخاقانيّ، مكتبة دار البيان، بغداد، ١٩٧٢م.
- رسائل ابن حزم، أحمد بن حزم، تحقيق: إحسان عبّاس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٨٣م.
- سرّ الفصاحة، ابن سناء الملك الخفاجيّ، تحقيق عبد المتعال الصّعيديّ، مطبعة محمّد علي صبيح، القاهرة، ١٣٧٢هـ- ١٣٥٣م.

- شرح ديوان حسّان بن ثابت، تحقيق: عبد الرّحمن البرقوقيّ، دار الأندلس للنّشر والتّوزيع، بيروت، ١٩٨٠م.
- شرح ديوان الحماسة لأبي تمّام، أبو عليّ المرزوقيّ، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م/١٤٢٤هـ.
- شرح ديوان كعب بن زهير، صنعة أبي سعيد السكريّ، مكتبة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م.
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي، (ت٨٢١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت،(د.ت).
- صحيح مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت).
- طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحيّ، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدنيّ، جدة، ١٩٧٤م.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه، أبو على الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط٥، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م.
- الكامل، أبو العبّاس المبرّد، تحقيق: د. أحمد محمّد الدّالي، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.
- كتاب الصناعتين، أبوهلال العسكريّ، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت ، ١٤١٩هـ.
- المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر، ابن الأثير، تحقيق: محمد محيي الدّين عبد الحميد، المكتبة العصريّة، بيروت، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.
- معجم الأدباء، ياقوت الحموي (المتوفى: ٦٢٦هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣ م.
- المعيار في أوزان الأشعار، أبوبكر محمد بن عبد الملك بن السّراج الشنتريني، تحقيق: د. محمد رضوان الدّاية، مكتبة دار الملاّح للطّباعة والنّشر، ١٤٠٠هـ - ١٩٧٩م.
- المقامات اللزومية، السرقسطيّ، تحقيق بدر أحمد ضيف، الهيئة المصريّة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٨٢م.
- مقدّمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، تحقيق: إيهاب محمد إبراهيم، مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٦م.
- الممتع في صنعة الشعر، عبد الكريم النهشليّ، تحقيق: د. محمد زغلول سلاّم، منشأة دار المعارف، الإسكندريّة، (د. ت).
- من حديث الشعر والنثر، طه حسين، دار المعارف، مصر، ط١، ١٩٣٦م.
- موادّ البيان، أبو الحسن علي بن خلف، تحقيق: د. حاتم صالح الضّامن، دار البشائر، دمشق، ط١، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

* * *